

سورة الذاريات

1. مكية، " والذاريات ذرواً "، يعني: الرياح التي تذرو التراب ذرواً، يقال: ذرت الريح التراب وأذرت.
2. " فالحاملات وقرأ "، يعني: السحاب تحمل ثقلاً من الماء.
3. " فالجاريات يسراً "، هي السفن تجري في الماء جرياً سهلاً.
4. " فالمقسمات أمراً "، هي الملائكة يقسمون الأمور بين الخلق على ما أمروا به، أقسم بهذه الأشياء لما فيها من الدلالة على صنعه وقدرته.
5. ثم ذكر المقسم عليه فقال: " إنما توعدون "، من الثواب والعقاب، " لصادق ".
6. " وإن الدين "، [الحساب والجزاء]، " لواقع "، لكائن. ثم ابتداءً قسماً آخر فقال:
7. " والسماء ذات الحبك "، قال ابن عباس و قتادة و عكرمة : ذات الخلق الحسن المستوي، يقال للنساج إذا نسج الثوب فأجاد: ما أحسن حبكه! قال سعيد بن جبير : ذات الزينة. قال الحسن : حبكت بالنجوم. قال مجاهد : هي المتقنة البنيان. وقال مقاتل و الكلبي و الضحاك : ذات الطرائق كحبك الماء إذا ضربته الريح، وحبك الرمل والشعر الجعد، ولكنها لا ترى لبعدها من الناس، وهي جمع حباك وحبكة، وجواب القسم قوله:
8. " إنكم "، أي: يا أهل مكة، " لفي قول مختلف "، في القرآن وفي محمد صلى الله عليه وسلم، تقولون في القرآن: سحر وكهانة وأساطير الأولين، وفي محمد صلى الله عليه وسلم: ساحر وشاعر ومجنون. وقيل: ((لفي قول مختلف)) أي: مصدق ومكذب.
9. " يؤفك عنه من أفك "، يصرف عن الإيمان به من صرف حتى يكذبه، يعني: من حرمه الله الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن. وقيل ((عن)) بمعنى: من أجل، أي يصرف من أجل هذا القول المختلف أو بسببه عن الإيمان من صرف. وذلك أنهم كانوا يتلقون الرجل إذا أراد الإيمان فيقولون: إنه ساحر وكاهن ومجنون، فيصرفونه عن الإيمان، وهذا معنى قول مجاهد .
10. " قتل الخراصون "، لعن الكذابون، يقال: تخرص على فلان الباطل، وهم المقتسمون الذين اقتسموا عقاب مكة، واقتسموا القول في النبي صلى الله عليه وسلم ليصرفوا الناس عن دين الإسلام. وقال مجاهد : هم الكهنة.
11. " الذين هم في غمرة "، غفلة وعمى و جهالة، " ساهون " لاهون غافلون عن أمر الآخرة، والسهو: الغفلة عن الشيء، وهو ذهاب القلب عنه.
12. " يسألون أيان يوم الدين "، يقولون: يا محمد متى يوم

سورة الذاريات

الجزاء، يعني: يوم القيامة تكذيباً واستهزاءً.

13. قال الله عز وجل: " يوم هم "، أي يكون هذا الجزاء في يوم هم، " على النار يفتنون "، أي: يعذبون ويحرقون بها كما يفتن الذهب بالنار. وقيل: ((على)) بمعنى الباء أي بالنار، وتقول لهم خزنة النار:

14. " ذوقوا فنتنكم "، عذابكم، " هذا الذي كنتم به تستعجلون "، في الدنيا تكذيباً به.

15. " إن المتقين في جنات وعيون "

16. " آخذين ما آتاهم "، أعطاهم، " ربهم "، من الخير والكرامة، " إنهم كانوا قبل ذلك "، قبل دخولهم الجنة، " محسنين "، في الدنيا.

17. " كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون "، والهجوع النوم بالليل دون النهار، ((وما)) صلة، والمعنى: كانوا يهجعون قليلاً من الليل، أي يصلون أكثر الليل. وقيل: معناه كان الليل الذي ينامون فيه كله قليلاً، وهذا معنى قول سعيد بن جبير عن ابن عباس، يعني: كانوا قل ليلة تمر بهم إلا صلوا فيها شيئاً، إما من أولها أو من أوسطها. قال أنس بن مالك: كانوا يصلون ما بين المغرب إلى العشاء. وقال محمد بن علي: كانوا لا ينامون حتى يصلوا العتمة. قال مطرف بن عبد الله بن الشخير: قل ليلة أتت عليهم هجوعها كلها. قال مجاهد: كانوا لا ينامون كل الليل، ووقف بعضهم على قوله: ((قليلاً)) أي: كانوا من الناس قليلاً، ثم ابتداءً: ((من الليل ما يهجعون))، وجعله جحداً أي: لا ينامون بالليل البتة، بل يقومون للصلاة والعبادة، وهو قول الضحاك ومقاتل .

18. " وبالأسحار هم يستغفرون "، قال الحسن: لا ينامون من الليل إلا أقله، وربما نشطوا فمدوا إلى السحر، ثم أخذوا بالأسحار في الاستغفار. وقال الكلبي ومجاهد ومقاتل: وبالأسحار يصلون، وذلك أن صلاتهم بالأسحار لطلب المغفرة. أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي، أخبرنا أبو محمد الحسن بن أحمد بن محمد المخلدي، أخبرنا أبو العباس محمد بن إسحاق السراج، حدثنا قتيبة، حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن، عن سهل بن أبي صالح، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل فيقول: أنا الملك، أنا الملك، من الذي يدعوني فاستجب له؟ من الذي يسألني فأعطيه؟ من الذي يستغفرني فأغفر له ". أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، حدثنا سليمان بن أبي

سورة الذاريات

مسلم عن طاووس سمع ابن عباس قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يتهدج، قال: ((اللهم لك الحمد أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق والنار حق، والنيبون حق، ومحمد صلى الله عليه وسلم حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليت، وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت ولا إله غيرك)) . قال سفيان: وزاد عبد الكريم أبو أمية: ((ولا حول ولا قوة إلا بالله)) . أخبرنا عبد الواحد المليحي، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي، أخبرنا محمد بن يوسف، حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا صدقة، أخبرنا الوليد عن الأوزاعي، حدثني عمير بن هاني، حدثني جنادة بن أبي أمية، حدثني عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " من تعار من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا استجيب له، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته " .

19. قوله عز وجل: " وفي أموالهم حق للسائل والمحروم " ، السائل: الذي يسأل الناس، والمحروم: الذي ليس له في الغنائم سهم، ولا يجرى عليه من الفية شيء، هذا قول ابن عباس وسعيد بن المسيب قالا: [المحروم الذي] ليس له في الإسلام سهم، ومعناه في اللغة: الذي منع الخير والعطاء. وقال قتادة والزهري: ((المحروم)) المتعفف الذي لا يسأل. وقال زيد بن أسلم: هو المصاب ثمره أو زرعه أو نسل ما شئته. وهو قول محمد بن كعب القرظي، قال: المحروم صاحب الجائحة، ثم قرأ: " إنا لمغرمون * بل نحن محرومون " (الواقعة-66-67).

20. " وفي الأرض آيات " ، عبر، " للموقنين " ، إذا ساروا فيها من الجبال والبحار والأشجار والثمار وأنواع النبات.

21. " وفي أنفسكم " ، آيات، إذا كانت نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظماً إلى أن نفخ فيها الروح. قال عطاء عن ابن عباس: يريد اختلاف الألسنة والصور والألوان والطبائع. وقال ابن الزبير: يريد سبيل الغائط والبول يأكل ويشرب من مدخل واحد ويخرج من سبيلين. " أفلا تبصرون " ، [قال مقاتل]: أفلا تبصرون كيف خلقكم فتعرفوا قدرته على البعث.

22. " وفي السماء رزقكم " ، قال ابن عباس ومجاهد ومقاتل: يعني المطر الذي هو سبب الأرزاق، " وما توعدون " ، قال عطاء: من الثواب والعقاب. وقال مجاهد: من الخير والشر. وقال

سورة الذاريات

الضحاك : وما توعدون من الجنة والنار، ثم أقسم بنفسه فقال:

23. " فورب السماء والأرض إنه لحق "، أي: ما ذكرت من أمر الرزق لحق، " مثل "، قرأ حمزة و الكسائي و أبو بكر وعاصم: ((مثل)) برفع اللام بدلاً من ((الحق)) وقرأ الآخرون بالنصب أي كمثل، " ما أنكم تنطقون "، فتقولون: لا إله إلا الله. وقيل: شبه تحقق ما أخبر عنه بتحقيق نطق الأدمي، كما تقول: إنه لحق كما أنت هاهنا، وإنه لحق كما أنك تتكلم، والمعنى: إنه في صدقه ووجوده كالذي تعرفه ضرورة. قال بعض الحكماء: يعني: كما أن كل إنسان ينطق بلسان نفسه لا يمكنه أن ينطق بلسان غيره فكذلك كل إنسان يأكل رزق نفسه الذي قسم له، ولا يقدر أن يأكل رزق غيره.

24. قوله عز وجل: " هل أتاك حديث إبراهيم "، ذكرنا عددهم في سورة هود، " المكرمين "، [قيل: سماهم مكرمين] لأنهم كانوا ملائكة كراماً عند الله، وقد قال الله تعالى في وصفهم: " بل عباد مكرمون " (الأنبياء-26)، وقيل: لأنهم كانوا ضيف إبراهيم وكان إبراهيم أكرم الخليفة، وضيف الكران مكرمون. وقيل: لأن إبراهيم عليه السلام أكرمهم بتعجيل قراهم، والقيام بنفسه عليهم بطلاقة الوجه. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: خدمته إياهم بنفسه. وروي عن ابن عباس: سماهم مكرمين لأنهم جاؤوا غير مدعويين. وروينا عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ".

25. " إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون "، أي: غرباء لا نعرفكم، قال ابن عباس: قال في نفسه هؤلاء قوم لا نعرفهم. وقيل: إنما أنكر أمرهم لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان. وقال أبو العالية: أنكر سلامهم في ذلك الزمان وفي تلك الأرض.

26. " فراغ "، فعدل ومال، " إلى أهله فجاء بعجل سمين "، مشوي.

27. " فقربه إليهم "، ليأكلوا فلم يأكلوا، " قال ألا تأكلون "

28. " فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم "

29. " فأقبلت امرأته في صرة "، أي: صيحة، قيل: لم يكن ذلك إقبالاً من مكان إلى مكان، وإنما هو كقول القائل: أقبل يشتمني، بمعنى أخذ في شتمي، أي أخذت تولول كما قال: " قالت يا ويلتى " (هود-72)، " فصكت وجهها " قال ابن عباس: لطمت وجهها. وقال الآخرون: جمعت أصابعها فضرت جبينها تعجباً، كعادة النساء إذا أنكرن شيئاً، وأصل الصك: ضرب الشيء بالشيء العريض. " وقالت عجوز عقيم "، مجازه: أتلد عجوز

سورة الذاريات

عقيم؟ وكانت سارة لم تلد قبل ذلك.

30. " قالوا كذلك قال ربك "، أي كما قلنا لك قال ربك ستلدين غلاماً، " إنه هو الحكيم العليم ".

31. " قال " [يعني إبراهيم]، " فما خطبكم أيها المرسلون "

32. " قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين "، يعني: قوم لوط.

33. " لنرسل عليهم حجارةً من طين "

34. " مسومةً "، معلمة، " عند ربك للمسرفين "، قال ابن عباس: للمشركين، والشرك أسرف الذنوب وأعظمها.

35. " فأخرجنا من كان فيها "، أي: في قري قوم لوط، " من المؤمنين "، وذلك قوله: " فأسر بأهلك بقطع من الليل " (هود-81).

36. " فما وجدنا فيها غير بيت "، أي غير أهل بيت، " من المسلمين "، يعني لوطاً وابنتيه، وصفهم الله تعالى بالإيمان والإسلام جميعاً لأنه ما من مؤمن إلا وهو مسلم.

37. " وتركنا فيها "، أي في مدينة قوم لوط، " آيةً "، عبرة، " للذين يخافون العذاب الأليم "، أي: علامة للخائفين تدلهم على أن الله تعالى أهلكهم فيخافون مثل عذابهم.

38. " وفي موسى "، أي: وتركنا في إرسال موسى آيةً وعبرة، وقيل: هو معطوف على قوله: " وفي الأرض آيات للموقنين "، [في موسى]، " إذ أرسلناه إلى فرعون بسُلطان مبین "، بحجة ظاهرة.

39. " فتولى "، فأعرض وأدبر عن الإيمان، " بركنه "، أي بجمعه ووجنوده الذين كان يتقوى بهم، كالركن الذي يقوى به البنيان، نظيره: " أو أوي إلى ركن شديد " (هود-80)، " وقال ساحر أو مجنون "، قال أبو عبدة: ((أو)) بمعنى الواو.

40. " فأخذناه ووجنوده فنبدناهم في اليم "، أغرقناهم فيه، " وهو مليم "، أي: أت بما يلام عليه من دعوى الربوبية وتكذيب الرسول.

41. " وفي عاد "، أي: في إهلاك عاد أيضاً آية، " إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم "، وهي التي لا خير فيها ولا بركة ولا تفتح شجراً ولا تحمل مطراً.

42. " ما تذر من شيء أتت عليه "، من أنفسهم وأنعامهم وأموالهم، " إلا جعلته كالرميم "، كالشيء الهالك البالي، وهو نبات الأرض إذا يبس وديس. قال مجاهد: كالتبن اليابس. قال قتادة: كرميم الشجر. قال أبو العالية: كالتراب المدقوق. وقيل: أصله من العظم البالي.

سورة الذاريات

43. " وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين " ، يعني وقت فناء آجالهم، وذلك أنهم لما عقروا الناقة قيل لهم: تمتعوا ثلاثة أيام.

44. " فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة " ، بعد مضي الأيام الثلاثة، وهي الموت في قول ابن عباس، قال مقاتل : يعني العذاب، و ((الصاعقة)) : كل عذاب مهلك، وقرأ الكسائي : ((الصعقة))، وهي الصوت الذي يكون من الصاعقة، " وهم ينظرون " ، يرون ذلك عياناً.

45. " فما استطاعوا من قيام " ، فما قاموا بعد نزول العذاب بهم ولا قدروا على نهوض. قال قتادة : لم ينهضوا من تلك الصرعة، " وما كانوا منتصرين " ، ممتنعين منا. قال قتادة : ما كانت عندهم قوة يمتنعون بها من الله.

46. " وقوم نوح " ، قرأ أبو عمرو و حمزة و الكسائي : ((وقوم)) بحر الميم، أي: وفي قوم نوح، وقرأ الآخرون بنصبها بالحمل على المعنى، وهو أن قوله: ((فأخذناه و جنوده فنبذناهم في اليم))، معناه: أغرقناهم وأغرقنا قوم نوح. " من قبل " ، أي: من قبل هؤلاء، وهم عاد و ثمود و قوم فرعون. " إنهم كانوا قوماً فاسقين " .

47. " والسماء بنيناها بأيد " ، بقوة و قدرة، " وإنا لموسعون " ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: قادرون. وعنه أيضاً: لموسعون الرزق على خلقنا. وقيل: ذو سعة: قال الضحاك : أغنياء، دليله: قوله عز وجل: " على الموسع قدره " (البقرة- 236)، قال الحسن : مطيقون.

48. " والأرض فرشناها " ، بسطناها ومهدناها لكم، " فنعم الماهدون " ، الباسطون نحن: قال ابن عباس: نعم ما وطأت لعبادي.

49. " ومن كل شيء خلقنا زوجين " ، صنفين ونوعين مختلفين كالسماء والأرض والشمس والقمر، والليل والنهار، والبر والبحر، والسهل والجبل، والشتاء والصيف، والجن والإنس، والذكر والأنثى، والنور والظلمة، والإيمان والكفر، والسعادة والشقاوة، والحق والباطل، والحلو والمر. " لعلكم تذكرون " ، فتعلمون أن خالق الأزواج فرد.

50. " ففروا إلى الله " ، فاهربوا من عذاب الله إلى ثوابه، بالإيمان والطاعة. قال ابن عباس: فروا منه إليه واعملوا بطاعته. وقال سهل بن عبد الله: فروا مما سوى الله إلى الله، " إني لكم منه نذير مبين "

51. " ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر إني لكم منه نذير مبين " .

52. " كذلك " ، أي: كما كذبك قومك وقالوا ساحر أو مجنون

سورة الذاريات

كذلك، " ما أتى الذين من قبلهم "، من قبل كفار مكة، " من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون ".

53. قال الله تعالى: " أتواصوا به "، أي: أوصى أولهم آخرهم وبعضهم بعضاً بالتكذيب وتواطؤا عليه؟ والألف فيه للتوبيخ، " بل هم قوم طاغون "، قال ابن عباس: حملهم الطغيان فيما أعطيتهم ووسعت عليهم على تكذيبك،

54. " فتول عنهم "، فأعرض عنهم، " فما أنت بملوم "، لا لوم عليك فقد أديت الرسالة وما قصرت فيما أمرت به. قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد ذلك على أصحابه، وظنوا أو الوحي قد انقطع، وأن العذاب قد حضر إذ أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتولى عنهم، فأنزل الله تعالى:

55. " وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين "، فطابت أنفسهم. قال مقاتل: معناه عظ بالقرآن كفار مك، فإن الذكرى تنفع من [سبق] في علم الله أن يؤمن منهم. وقال الكلبي: عظ بالقرآن من آمن من قومك فإن الذكرى تنفعهم.

56. " وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون "، قال الكلبي و الضحاك و سفيان: هذا خاص لأهل طاعته من الفريقين، يدل عليه قراءة ابن عباس: ((وما خلقت الجن والإنس - من المؤمنين - إلا ليعبدون))، ثم قال في أخرى: " ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس " (الأعراف-79). وقال بعضهم: ومث خلقت السعداء من الجن والإنس إلا لعبادتي والأشقياء منهم إلا لمعصيتي، وهذا معنى قول زيد بن أسلم، قال: هو على ما جبلوا عليه من الشقاوة والسعادة. وقال علي بن أبي طالب ((إلا ليعبدون)) أي إلا لأمرهم أن يعبدوني وأدعوهم إلى عبادتي، يؤيده قوله عز وجل: " وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً " (التوبة-31). وقال مجاهد: إلا ليعرفوني. وهذا أحسن لأنه لو لم يخلقهم لم يعرف وجوده وتوحيده، دليله: قوله تعالى: " ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله " (الزخرف-87). وقيل: معناه إلا ليخضعوا إلي ويتذللوا، ومعنى العبادة في اللغة: التذلل والانقياد، فكل مخلوق من الجن والإنس خاضع لقضاء الله، متذلل لمشيئته لا يملك أحد لنفسه خروجاً عما خلق عليه. وقيل: ((إلا ليعبدوني)) إلا ليوحدوني، فأما المؤمن فيوحده في الشدة والرخاء، وأما الكافر فيوحده في الشدة والبلاء دون النعمة والرخاء، بيانه قوله عز وجل: " فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين " (العنكبوت-65).

57. " ما أريد منهم من رزق "، أي: أن يرزقوا أحداً من خلقي ولا أن يرزقوا أنفسهم، " وما أريد أن يطعمون "، أي: أن

سورة الذاريات

يطعموا أحداً من خلقي، وإنما أسند الإطعام إلى نفسه، لأن الخلق عيال الله ومن أطعم عيال أحد فقد أطعمه. كما جاء في الحديث يقول الله تعالى: ((استطعمتك فلم تطعمني))، أي: لم تطعم عبدي، ثم بين أن الرزاق هو لا غيره فقال:

58. " إن الله هو الرزاق "، يعني: لجميع خلقه، " ذو القوة المتين "، وهو القوى المقتدر المبالغ في القوة والقدرة.

59. " فإن للذين ظلموا "، كفروا من أهل مكة، " ذنوباً "، نصيباً من العذاب، " مثل ذنوب أصحابهم "، مثل نصيب أصحابهم الذين هلكوا من قوم نوح وعاد وthumbود، وأصل ((الذنوب)) في اللغة: الدلو العظيمة المملوءة ماء، ثم استعمل في الحظ والنصيب، " فلا يستعجلون "، بالعذاب يعني أنهم أخرجوا إلى يوم القيامة.

60. يدل عليه قوله عز وجل: " فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون "، يعني: يوم القيامة، وقيل: يوم بدر.